# مقدمة

المحرّرتان

إنّ الدول التي تجري فيها صراعات قومية، إثنية وتاريخية، وخاصة تلك التي تتّسم فيها المواجهات بميزات كولونيالية، يشكّل الحيّز فيها عمومًا تعبيرًا عن رواية المجموعة المسيطرة الرسمية والتي يُطمح إليها. فيتمّ الحفاظ على الذاكرة والرواية المرتبطتين بها وتطويرهما، أيضًا، بواسطة التخطيط الحيّزي والتصميم الحضَري. إنّ المصمّمين، المخطّطين والمعماريين التابعين لمجموعة الأكثريّة شركاء في عرض قصّتها، وهم بذلك يصمّمون ويمثّلون روايتها التاريخية، السياسية والجغرافية في الحيّز. وفي الوقت نفسه، فإنّهم يتجاهلون قصّة وذاكرة المجموعات المسيطر عليها، كالأصلانيين ومجموعات الأقليّة الإثنية والثقافية، وفي بعض الأحيان يقومون حتى بمحوها (Zukin, 1995; Sandrcock, 2003; Fenster, 2007). وهكذا، فإنّ القصّة الحيّزيّة التي تعكس، أيضًا، الذاكرة الفردية والجماعية من وجهة نظر معيّنة، تعبّر عن قوّة حيّزية تساهم في تعريف الماضي العام (Hayden, 1995; Zukin, 1995; Casey, 1987).

هناك من يحاججون بأنّ الذاكرة مرتبطة بالمكان وبالحيّز وبأنّها تمكّن الفرد من الارتباط بالمحيط المألوف، الذي يشكّل جزءًا من المشهد الثقافي (Hayden, 1995; Zukin, 1995; Casey, 1987). كذلك، فإن الذاكرة، والذاكرة الحيّزية، وهما جزء من الهوية الشخصية والجماعية، تموضعان الفرد في إطار تاريخيّ أوسع – تاريخ عائلي، مجتمعي، حضريّ وقومي. لذلك، فإنّ فقدان الذاكرة الحيّزية من شأنه، عمليًا، أن يؤدّي إلى فقدان الهويّة الشخصيّة والجماعيّة (Fenster, 2005).

يعكس حيّز الدولة في السياق الإسرائيلي، في الأساس، الرواية الأيديولوجية الصهيونية. وتشمل هذه الرواية، أيضًا، قصصًا وصورًا أشبه باللوحة الجرداء (Tabula Rasa)، أي الأرض الخاوية، أو «إحياء القفر»، وهي تشكّل عمليًا تعبيرًا عن قصص السلب والسيطرة. وهكذا، فإنّ التخطيط الحيّزيّ في الدولة الجديدة حاول، ولا يزال يحاول، أن يمحو التصميم الحيّزي المناقض للرواية الصهيونية بواسطة محوه عن وجه الأرض. فقد تجاهل التخطيط الحيّزي في الدولة الجديدة رواية وذاكرة الأقلية الفلسطينية، وقرّر أن رواية وذاكرة الأكثرية، الجديدتين نسبيًا، هما ما سيتمّ التعبير عنه في تصميم الحيّز (LeVine, 1999 a; Fenster, 2007).

فعلى سبيل المثال، تتطرّق فنستر، (٢٠٠٧)، إلى التخطيط المهنيّ المؤسسيّ في إسرائيل وتحاجج بأنه بحكم كونه يمثّل الأيديولوجيا الصهيونية ويعمل على تطبيقها، فليس بمستطاعه أن يمثّل رواية الفلسطينيين وذاكرتهم الحيّزية. وتتابع القول، إنّ «سيرورة بناء الأمّة اليهودية لم تشتمل على استبناء

اجتماعيّ، اقتصاديّ وسياسيّ فحسب، وإنما على استبناء للحيّز بوصفه يهوديًا ومحو للماضي الفلسطيني، أيضًا». (فنستر، ٢٠٠٧: ١٩٣). أمّا Said (1999)، فيربط ما بين الجغرافيا والذاكرة وبين الاحتلال والسيطرة. ويحاجج بأنّ صراع الفلسطينيين الأكبر هو الصراع على «الحقّ في الوجود القابل للتذكّر، أسوةً بالحقّ في امتلاك واقع تاريخيّ جماعيّ والمطالبة به».

يتطرّق هذا العدد من «مكان» إلى موضوع «الحق في الرواية الحيزيّة»، وينقسم إلى قسمين. يتمّ في القسم الأوّل إيراد ثلاثة مقالات أكاديميّة، وهي تعرض السياسة والممارسة الحيزيّتين لدى دولة إسرائيل ومؤسساتها المختلفة. وفقًا لهذه المقالات، فإنّ هدف هذه السياسة والممارسة هو محو الرواية الفلسطينية، من خلال فرض النسيان على الحيّز والتاريخ الجغرافيين والسياسيين الفلسطينيين، هدمهما وإجراء تغيير حادّ فيهما. يعرض إيلان بابه في المقال الأوّل من هذا القسم، تحت عنوان «صَهْينة الحيّز الفلَسطيني – منظورات تاريخية وتأريخية»، السيرورة التاريخية للجغرافيا السياسيّة لأرض فلسطين منذ الحكم العثماني. هذه السيرورة توقّفت مع دخول الحركة الصهيونية إلى المنطقة. بابه يحاجج بأنه ابتداء من ثلاثينيات القرن السابق وحتى يومنا هذا تعاطى الخطاب والقصّة الصهيونيّان مع فلسطين كمكان فارغ، حيّز متجمّد وغير متطوّر. ومع انتهاء الانتداب البريطانيّ سيطرت الحركة الصهيونية على ٥,٨٪ من ملكيّة الأرض في حيّز فلسطين، ولكن مع مغادرة البريطانيين سيطرت على ٨٠٪ من البلاد، من خلال القيام بعمليّة هدم ومحو. وفي العام ١٩٦٧ اتّسعت سيطرة الحركة الصهيونية على الأرض أكثر فأكثر، ووصلت حتى شمال هضبة الجولان وإلى قناة السويس. انتصرت في أقسام الجغرافيا، اليوم، في جامعات إسرائيل، القومجيّة المتطرّفة، وكما يلخّص بابه «فإنّ خطاب الصهيونية القديم والرومانسي كقومجية قد عاد، حيث تشكّل الأرض – التي تمّ نهبها من الفلَسطينيين – العنصر التأسيسي الرئيسي للذات وللأمّة».

يتطرّق بابه، أيضًا، إلى الخطاب المتغيّر في الأكاديمية الإسرائيلية. في نهاية الثمانينيات ظهر في الأكاديمية الإسرائيلية باحثون ناقضوا الروايات التاريخية لدى الحركة الصهيونية وشكّكوا في تلك القصص. وفي سنوات الـ ٢٠٠٠ حلّت مكان البحث الأكاديميّ النقدي وما بعد الصهيوني، وخصوصًا على أثر الانتفاضة الثانية، المدرسة النيو–صهيونية التي حملت معها «تصديق مجدّد على التفسير الحيّزي الصهيوني الكلاسيكي للواقع الراهن». إنّ نشاط هذه المدرسة ليس موجّهًا نحو المناطق المحتلة، فحسب، بل نحو النقب، أيضًا، عبر سياسة ترحيل البدو إلى محميّات وإلى أماكن أخرى بواسطة التمييز الحيّزيّ.

المقالان التاليان يتمحوران في حيّز مدينة يافا من جوانب عدة. قبل عام ١٩٤٨ كانت يافا مدينة مركزية ومزدهرة من ناحية حيّزية، اقتصادية واجتماعية. نكبة عام ١٩٤٨ أدّت إلى إحداث تغيير حادّ في حيّز يافا البشري، المادي، الاجتماعي والاقتصادي، مثلما في مُجمل حيّز فلسطين. يتمحور مقال محمود يزبك، «الوقف الإسلاميّ في يافا والحيز المديني: من الدولة العثمانيّة إلى دولة إسرائيل»، في التاريخ الحيّزي للوقف الإسلامي في يافا في فترة الدولة العثمانية، ويعرض التغيّرات الحيّزيّة التي جرت على أثر إقامة دولة إسرائيل. يربط يزبك بين ارتفاع عدد عقارات الأوقاف والمباني التي كانت في حيازة الوقف، وبين ازدهار يافا

الاقتصادي. فعدد المباني والمشاريع الاجتماعية والاقتصادية التي تمّ تسجيلها كأوقاف، ارتفع، في الأساس، في فترات الازدهار الاقتصادي، مثلما في فترة الحاكم محمد باشا أبو نبوت (الذي عمل كحاكم بين السنوات ١٨٠٥-١٨١٩)، والتي شهدت ازدهارًا في اقتصاد المدينة المحلّي، خصوصًا على أثر تطوير الميناء. وقد أحدثت المباني والعقارات التابعة للأوقاف تغييرات في حيّز المدينة الحضَريّ والمعماريّ.

يتمحور مقال يزبك في التاريخ الحيّزي والماديّ لثلاثة عشر مسجدًا تمّت إقامتها في أرجاء يافا قبل النكبة، وهو يرافقها، أيضًا، بعد إقامة إسرائيل، إذ انتقلت تلك المساجد إلى سيطرة الدولة بحكم قانون أملاك الغائبين، ١٩٥٠. يحاجج يزبك بأنّه كان لهذا القانون «تأثير مدمّر على وضعية الأوقاف الفلسطينية». وهو يبيّن أنّ القوانين الإسرائيلية، المرتبطة بالأوقاف الإسلامية في أرجاء الدولة وفي يافا، قد تسبّبت في هدم معظم تلك العقارات أو سلبها. إنّ هدم هذه المباني، أو إهمالها، تسبّبا في تغيير منظر يافا الحضريّ بشكلٍ يعكس سياسة محو التاريخ الحيّزي للأقليّة العربيّة وإهماله، وهذا إلى جانب التشديد على قصّة الأكثرية اليهوديّة وتطويرها. رغم ذلك، يدّعي يزبك أنّ هذه المحاولات لم تنجح بشكل كامل، إذ إن الهدم المنظّم للأوقاف في يافا، أرغم الأقلية الفلسطينية على تطوير أدوات للحفاظ على التاريخ والهوية القومية والثقافية.

مقال رافيت غولدهابر، أيضًا، «تطبيق مخطّط منحدر يافا، تحليل لروايات يافيّة في سنوات الألفين»، يتمحور في حيّز يافا. فهو يركّز على المخطّط الهيكليّ المحليّ المسمّى «منحدر يافا»، والذي جاء، وفقًا للتصريحات بشأنه وأهدافه، لغرض توفير حلّ لمشكلة التدهور المادي للمنحدر الواقع غربيّ الحيين الفلسطينيين العجمي والجبلية. اشتمل المخطّط، أيضًا، على اقتراحات لإخلاء وبناء وتجفيف البحر، لغرض زيادة مساحة الأراضي المخصّصة للإسكان الفخم.

ويحلّل المقال الخطاب المؤسّسي مقابل خطاب سكّان يافا الفلسطينيين، بشأن تطبيق هذا المخطّط. تحاجج غولدهابر، بأنّ ثمّة نوعين من الخطاب والروايات ظهرا حول المخطّط، وهما يمثّلان الصراع على تصميم يافا الحيّزي. الخطاب الأوّل، المؤسّسي، يتطرّق إلى تطبيق مخطّط «منحدر يافا» كجزء من سياسة وممارسة تطوير وترميم مديني-اجتماعي، بهدف إدخال تحسين على جودة حياة سكّان المكان المادية والاجتماعية. تحاجج غولدهابر بأنّ هذا الخطاب يشير إلى انقطاع المؤسّسة عن «الفهم والاعتراف بأنّ كل سيرورة ترميم وحفظ يجب أن تشمل السكّان في أحيائهم التقليدية، بما في ذلك تراثهم القوميّ، ويجب أن تكون ملائمة لقدراتهم الاقتصاديّة».

إلى جانب الخطاب المؤسّسي هناك خطاب سكّان يافا الفلسطينيين، الذي يعكس تهديدًا وخوفًا من طردهم، للمرّة الثانية، من حيّز يافا، بغية تهويد هذا الحيّز. فسياسة وممارسة صيانة وترميم حيّز يافا ومبانيها، والذي رافقه تدخّل الرأسمال الخاص، قد أدّيا، في خاتمة المطاف، إلى خصخصة هذا الحيّز، وإلى ارتفاع ثمن العقارات على أثر ذلك. إنّ ارتفاع الأسعار أخرج سكّان يافا الفلسطينيين شحيحي الموارد من دائرة المشترين، وأدخل إلى المدينة اليهود الأثرياء. وتحاجج غولدهابر بأنّ خلف هذا المخطّط تقف أهداف البلديّة العلنيّة، ترميم يافا ودفعها، وكذلك أهداف خفيّة في مركزها تهويد الحيّز اليافيّ وخصخصته. السكّان العرب القلائل الباقون في يافا لن يشكّلوا تهديدًا على تهويد الحيّز، لكنهم سوف

« يزيّنون المحيطَ اليافيّ المُتخيّل كنقاط ملوّنة أصلية » فقط .

يشتمل القسم الثاني من هذا العدد على فقرات من الاعتراض الذي قدّمه مركز عدالة إلى المجلس القطري للتخطيط والبناء، بتاريخ ٣١ / ١٠ / ٢٠٠٧، ضد « المخطّط الهيكليّ اللوائيّ الجزئيّ للواء بئر السبع ( متروبولين بئر السبع )، ت .م .م . ١٤ / ٤، تغيير رقم ٢٣ » . هذا الاعتراض يعبّر عن خطاب الحقوق التاريخية، الحيّزية والثقافيّة للفلسطينيين الأصليين في المكان . تردُ في هذا القسم فقرات من ردّ الدولة على هذا الاعتراض كما طُرح شفهيًا في الجلسة التي انعقدت أمام المحققة التي عيّنها المجلس القطريّ للتخطيط والبناء في تاريخ ٢ / ٧ / ٢٠٠٨ . يعكس هذا الردّ رواية تتميّز بالوصاية وتتجاهل احتياجات وطلبات الأقلية الفلسطينية في النقب، كما تتجاهل، أيضًا، الاختلافات الثقافية، الاجتماعية والحيّزية لهذه الأقلية . عمليًّا، رواية الدولة تتنافض مع رواية المجتمع الفلسطيني البدويّ في النقب وتختلف عنها .

## المصادر


- فنستر، توفي، ٢٠٠٧ . « ذاكرة، انتماء والتخطيط الحيّزي في إسرائيل »، **نظرية ونقد** ٣٠، صيف، ص ١٨٩–٢١٢ . ( عبري )

— Casey, Edward (1987) *Remembering: A Phenomenological Study*. Bloomington: Indiana University Press.

— Fenster, Tovi (2005) The Right to the Gendered City: Different Formations of Belonging in Everyday Life, *Journal of Gender Studies* 14(3): 217–231.

— Hayden, Dolores (1995) *The Power of Place: Urban Landscapes as Public History*. Cambridge: MIT Press.

— LeVine, Mark (1999) *Overthrowing Geography, Re-Imagining Identities: A History of Jaffa and Tel Aviv, 1880 to the Present*. A dissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Philosophy, Department of Middle Eastern Studies, New York University.

— Said, Edward W. (1999) Palestine: Memory, Invention and Space, in Abu-Lughod, I. and Nashef, K. (eds) *The Landscape of Palestine: Equivocal Poetry*. Birzeit: Birzeit University Publications.

— Sandercock, Leonie (2003) *Cosmopolis II Mongrel Cities of the 21st Century*. London and New York: Continuum.

— Zukin, Sharon (1995) *The Cultures of Cities*. Cambridge: Blackwell Publishers.